

نظرية الاستطاعة وتطبيقاتها عند الإمام علي الهادي (ع) (رؤية في نظرية الجبر و التفويض)

أ.م.د عبدالحسين العمري^١

تاريخ الوصول: ١٤٣٤/٨/٢٧

تاريخ القبول: ١٤٣٤/٩/٢٠

يتناول البحث موضوع (نظرية الاستطاعة وتطبيقاتها في مقولات الامام علي الهادي عليه السلام) التي تعد — في نظرنا — الأساس للنظرية التي عرفت عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهي (نظرية الجبر والتفويض)، وعليه فإننا سنحاول في هذا البحث جلاء الفكرة في هذه النظرية التي لم يتطرق إليها أحد من الباحثين والمفكرين — حسب اطلاعنا المتواضع —، وما مفهوم الاستطاعة في اللغة والاصطلاح، وأساسياتها القرآنية بشيء من الإيجاز، وبما يسمح به فضاء البحث المختصر، ريثما يتوفر الوقت اللازم للبحث في هذه النظرية واستجلاء أولياتها بالكامل، قرآناً وحديثاً، بالإضافة إلى ما ورد فيها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الكلمات الرئيسية: نظرية، الاستطاعة، الجبر، التفويض، التطبيقات، الامام علي الهادي (ع)

١. جامعة ذي قار في العراق، كلية الآداب. dr.alumary2012@yahoo.com

مقدمة

تمثل المنظومة الفكرية في السيرة النبوية الشريفة و حياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) الركيزة الأولى في بناء الفكر الإسلامي الحقيقي الذي يمتنع من النبع القرآني الثر، بالإضافة إلى تمثله تمثلاً صحيحاً و قراءته قراءة مستنيرة و منيرة في الوقت ذاته، الغاية من ذلك صناعة فكر إسلامي واعي و أصيل ينتمي إلى ذاته المبدعة التي أوجدها القرآن الكريم من خلال إعادة إنتاج المعنى بما يتلاءم و روح العصر المتجدد و المتطور عبر السنين المتطاولة .

و الإمام علي الهادي (ع) هو جزء مهم من هذه المنظومة الفكرية الكونية، الذي بالرغم من كل المضايقات و التهميش و الإقصاء الذي عانى منه هو و أبائوه المطهرون (عليهم السلام)، لم يخل على الإسلام و المسلمين بعبثاته الفكرية و المعرفي، و لعل بحثنا الذي نتناول فيه نظرية الاستطاعة عنده هو واحد من نسيج هذا العطاء المتألق في رحاب المعرفة و الفكر الإسلامي الأصيل، و هو يمثل قنديلاً معرفياً كبيراً في المسيرة العلمية الإسلامية الحقة .

و قد تناولت البحث على مقدمة و مبحثين و خاتمة، عرضت في المقدمة لقيمة البحث، و في المبحث الأول عرضت لمفهوم الاستطاعة قرآنياً، و نبوياً، و لدى أئمة أهل البيت (ع)، و كذلك لغوياً في تمهيد نظري، كما تناولت في المبحث الأول أوليات النظرية عند أئمة أهل البيت (ع) و تناولت في المبحث الثاني مفهوم نظرية الاستطاعة عند الإمام علي الهادي (ع)، ثم الخاتمة التي عرضت فيها لنتائج البحث، و بعد كل ذلك جاء مسرد المصادر و المراجع التي تخص البحث ... و الحمد لله أولاً و آخراً .

تمهيد نظري

لعل الفكرة تبدو جديدة نوعاً ما في البحث، ولكنها موجودة في تراث الامام علي الهادي (ع) المروي عنه، و هي كذلك موجودة في النص القرآني، أي أن القرآن الكريم تناولها في آياته، كما أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) و أئمة أهل البيت (ع) قد أشاروا إليها، كل حسب المقتضى الوارد لديه أو السؤال الذي يوجه له، أو المطلب الذي يعطي فيه حكماً، و عليه فإنني سأستعرض ذلك بإيجاز — إن شاء الله — حفاظاً على طاقة البحث، و وصولاً إلى الفكرة الرئيسة للبحث التي نريد تناولها لدى الإمام (ع) شخصياً، أملاً في أن يكون هذا البحث مكتملاً في هذا الباب يوماً ما.

من حيث التناول القرآني، و ردت آيات عدة تشير إلى فكرة الاستطاعة بالنص، مثلاً قوله تعالى (لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا....) سورة البقرة الآية (٢١٧). سورة البقرة الآية (٢١٧). و هي تأخذ معنى الفرضية بدليل قوله تعالى (إن استطاعوا)، و عن الحج بوصفه فريضة (... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...) سورة آل عمران الآية (٩٧). و هنا تذهب إلى معنى التخيير المشروط، و قوله تعالى عن ذي القرنين (ع) حينما بنى السد المذكور في القرآن الكريم (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) سورة الكهف الآية (٩٧). و الفكرة غير قابلة للتنفيذ ذاتياً، أو قوله تعالى (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ) سورة يس الآية (٦٧). و هنا تفيد معنى السلب، و قوله تعالى (فَمَا اسْطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَصَرِّينَ) سورة الذاريات الآية (٤٥). كذلك هنا بمعنى السلب، و بصيغة الفعل المضارع و ردت هذه اللفظة في قوله تعالى (...إِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ

الْحَقُّ سَفِيهَاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَلِّغَ هُوَ فَالْيُمْلِلُ
وَلِيَّهُ... (سورة البقرة الآية (٢٨٢)). وهنا تفيد معنى افتقاد
القدرة الذاتية، وقوله تعالى (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ
مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ
السَّمَاءِ...) سورة المائدة (١١٢). وهنا تفيد معنى الاستفهام
في غير محله، وبصيغة المخاطب وردت في قوله تعالى (أَوْ
يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) سورة الكهف الآية
(٤١). وهنا تفيد معنى سلب القدرة، وقوله تعالى حكاية
عن لسان الخضر(ع) حينما صاحبه نبي الله موسى (ع)
بقوله (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) سورة الكهف الآية
(٦٧). كذلك تفيد عدم القدرة الذاتية بهذا الخصوص،
وقوله تعالى في القصة نفسها (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا) سورة الكهف الآية (٧٢). وهي تأكيد على المعنى
ذاته، وأيضاً قوله تعالى (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا) سورة الكهف الآية (٧٥). وهي كذلك لتأكيد
المعنى ذاته تخصيصاً.

وفي ذلك فرقٌ غير قليل بين الاستطاعة بوصفها مفهوماً
يفيد معنى القدرة الذاتية وبين الطاعة بوصفها مفهوماً يفيد
معنى الالتزام بالأوامر، فالطاعة بحد ذاتها تفيد معنى الالتزام
كما ورد في معجمات اللغة، فقد ورد في أساس البلاغة
للزمخشري أن أطاع يفيد هذا المعنى (تقول العرب : اللهم
لا تُطِيعَنَّ بي حاسداً أي لا تفعل بي ما يُحب) أساس البلاغة
مادة (طوع). و (طوع — أقرّ طائعاً، وفعل ذلك طوعاً
وطواعية، وهو مطواع وطِيع، وطاوعته على كذا) المصدر
نفسه. و(من المجاز : أنا طوعُ يدك، وفرسُ طِيع العنان)
المصدر نفسه.

بينما نجد في المعجم أن (استطاع) يختلف معناها ؛ إذ
ورد في المعجم أنها تفيد معنى آخر، كما في قوله (وفيه
استطاعة ذلك، وتطاول لهذا الأمر، وتطوَّع له : تكلف

استطاعته حتى يستطيعه) المصدر نفسه. مما يعني أن الفكرة في
(الميزان الصرفي (أن) كل زيادة في المبني تصبحها زيادة في
المعنى) محنة المثقف — دراسة نصوص عبدالله بن المقفع أسلوبياً ٥٧.
أي أن الطاعة غير الاستطاعة، بل هما على طرفي نقيض في
المعنى، فبينما تفيد الطاعة معنى الانصياع والانقياد، تفيد
الاستطاعة معنى آخر هو القدرة الذاتية وإثبات الذات .

ولعل المعنى المعجمي كما فهمنا من الآيات القرآنية
السابقة والآيات الآتية (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ
أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ) سورة آل عمران الآية (١٦٨). (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ
أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا) سورة
النساء الآية (٨٠). (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ) سورة الزخرف الآية (٥٤). هو قريب من المعنى
الاصطلاحي للفظ (الاستطاعة) الذي يعني (القدرة التامة
التي يجب عندها صدور الفعل) التعريفات ٣٥. فالمعنى
المعجمي هو ضد العجز وهو قريب جداً من المعنى
الاصطلاحي، أي أن (الاستطاعة والقدرة والوسع والطاقة
متقاربة في المعنى واللغة) المصدر نفسه ٣٥.

ومما تبين نجد أن الاستطاعة لها صلة عميقة بالقدرة
والطاقة والامكان، وعلى هذا الأساس فإن الفرق بين
الاستطاعة وغيرها من المصطلحات التي ذكرناها يكمن في
السياق الذي يمكن أن تأتي اللفظة أو المصطلح، من جهة،
وفي التناغم بالمعنى الذي يكسبه المصطلح من خلال السياق
الذي يرد فيه، لكن يمكن القول إن القدرة والطاقة
والامكان هي أعم من الاستطاعة، والاستطاعة أحص
وألصق بالإنسان منها بغيره من المخلوقات، على أساس أن
الخطاب القرآني الذي نفهمه من الآيات السابقة هو
انحيازها في المعنى لمفهوم الاستطاعة لصالح البشر ؛ لأن كل
مفردات الاستطاعة ذهبت باتجاه المنحى الإنساني، بينما ما

أوليات النظرية

تمثل نظرية الجبر والتفويض لدى المسلمين بشكل عام ، وعلمائهم بشكل خاص، من أعقد المشكلات التي عانى فيها المفكرون والفلاسفة كثيراً حتى وصلوا فيها إلى حيص بيص، ودخلوا في متاهاتها، وكل له نظريته في ذلك ورأيه الخاص به^١ باستثناء أئمة أهل البيت عليهم الذين كانوا على منهج خاص بهم يروونه عبر سلسلة من الأئمة وصولاً إلى النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، ومن خلال فهمهم العميق لكتاب الله تبارك وتعالى، ولذلك كانت هذه النظرية قد شغلت حيزاً كبيراً لدى الفلاسفة والمتكلمين، وكان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يدلون بأقوالهم النابعة من القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة، بناء على المصلحة العامة ومتطلبات الحفاظ على الدين الخفيف وبيان أحكامه وأصوله، وبناء على فهم عميق لتأصيل الأصول والعقائد يتمثل في (إعطاء مساحة للعقل البشري المترقى أن ينهل في كل زمان من مخزون النص) مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني ٨٠. فكانت أقوال أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير القرآن الكريم تعتمد منهجية متعددة تبعاً لمقتضى الحال المطابق للفهم الحقيقي للنص ينظر: المصدر نفسه ٨٣ وما بعدها. وبعيداً عن الرأي المختزل الذي لا ينسجم والمفهوم القرآني الواقعي لمسيرة الكون وتحدياته المعرفية في الذات الإنسانية الواعية الطامحة إلى الترقى المعرفي الواعي .

الإمام علي الهادي (ع) ونظرية الاستطاعة

لا يتعد الإمام علي الهادي (ع) عن منهج آبائه (عليهم السلام) في بيان المنهجية الحقيقية لفهم الدين الخفيف فهماً عقلياً خالصاً؛ لأن (لله على الناس حجتين ظاهرة وباطنة، فأما الظاهرة، فالرسل والأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، وأما الباطنة فالعقول) بحار الأنوار ١/ ١٣٧. حيث نرى أن الإمام (ع) حينما يسأل عن قضية الجبر والتفويض التي

تعنيه المصطلحات الأخرى التي ذكرناها ونحدثنا عن علاقتها بمفهوم الاستطاعة، تشمل حتى المخلوقات الأخرى في أدائها للعمل أو التكليف، فلا يقال (الجمل مطبق لحمل كذا ولا تقول مستطاعاً، فهذا هو الفرق بينهما) الفروق اللغوية ٨٩.

إذن كما أن هناك تقارب عميق بين هذه المفاهيم، هناك فرق طفيف بينها، وهذا التقارب والفرق هو الذي يحدد قيمة الواجب الفردي من حيث أداء أي عمل من قبل الفرد أو الامتناع عنه، مع الأخذ بنظر الاعتبار قدرة الفرد على أداء عمل دون غيره، أو استطاعته على عمل دون سواه، وهذه الاستطاعة هي أصلاً، حسب فهمنا، تتناسب وقدرة الفرد — الانسان على الأداء، حتى يكون في أركان الدين وواجباته المعتمدة التي تمثل في شكلها رمزية الانتماء ناهيك عن مضامينها، بوصفها برنامجاً دينوياً يمثل ضوابط تحكم السلوك الفردي دون المساس بالحرية التي تنسجم والمنطق العقلي، إذن هي تدخل في باب التيسير السلوكي الذي يعطي للفرد المسلم مساحة واسعة من الحركة، وبطبيعة الحال فإن منهج التكليف الديني لم يغفل ذلك، بل وضعه موضع الاعتبار، ناظراً إلى أهمية سلامة الأدوات وصحة الأسباب التي تجعل تنفيذ العمل أو الواجب ميسراً دون الإغفال لمقتضيات العمل نفسه.

ونحن لا نريد الحديث عن الاستطاعة بوصفها مفهوماً فقهيّاً بحتاً أو سواه مما ينتمي إلى المباحث الفقهية والتشريعية الصرفة، فهذا له مجال آخر.

بل نريد الحديث عن مفهوم الاستطاعة عند الامام علي الهادي (ع) بوصفه مفهوماً كلامياً فلسفياً يدخل في باب النظر إلى العلاقة بين الخالق عز وجل وبين العبد من جهة الاعتقاد فقط دون الدخول في مقتنيات الفكر العقائدي العميقة ؛ لأن البحث في حجمه لا يحتمل ذلك.

شغلت بال المفكرين وأئمة المذاهب والمتكلمين والفلاسفة المسلمين، يكون جوابه مفصلاً بناءً على نظرية الاستطاعة التي نحن بصدد البحث فيها وبيان رأي الإمام (ع) في ذلك.

يبدأ الأئمة (عليهم السلام) التأصيل لأفكارهم من القرآن الكريم ثم التدرج إلى الحديث النبوي الشريف ثم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم كل إمام يأخذ عن سابقه وبحسب الظرف والزمان والمكان ورؤية العصر الذي يعيشه، وبذلك هم يمثلون النموذج المتطور في التفكير؛ لأنهم عدل القرآن والمؤهلون لاستجلاء معانيه ودلالاته وكوامنه من المعاني والأفكار والنظريات بعيداً عن الاحتكام لظاهر النص وتعميمه، أو القول بأرائهم، ولذلك كانت أجوبة الإمام علي الهادي (ع) امتداداً حقيقياً لجهد من سبقه من آباءه (عليهم السلام)، فهو يقول في رسالته في الرد على أهل الجبر والتفويض وإثبات العدل والمثلية بين المزلتين، حينما سأله أصحابه عن ذلك وبيان الفكرة الصحيحة ومقومات هذه الفكرة وطبيعتها، وأن يرد على الجبرية والمفوضة الذين كانوا ينشطون قبل وأثناء حياة الإمام (ع)، يقول الإمام (ع) :

(اعلموا — رحمكم الله — أنا نظرنا في الآثار وكثرة الأخبار فوجدناها عند جميع من ينتحل الإسلام ممن يعقل عن الله جل وعز لا تخلو من معينين: إما حق فيتبع وإما باطل فيجتنب) تحف العقول ٣٣٧.

يحدد الإمام بداية المسار الفكري العام الذي يبرر المنهجية المعتمدة؛ إذ يقول إننا بشكل عام وكما متعارف لدى المسلمين من العقلاء أن هناك اتجاهين حق وباطل، ثم يحدد نقطة الانطلاق الحقيقي لكل أهل الفرق أن القرآن الكريم هو حق لا ريب ولا شك فيه من خلال استشهاده بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) (لا تجتمع أمي على

ضلالة)^١ من حيث الكلية الجامعة التي لا توجب الفرق، أما إذا كان هناك ما يوجب الفرقة بينهم أو عصيانهم لأمر إلهي أو نبوي فهذا يعني أن لا اجتماع بينهم، وكما قال الإمام (ع) في هذا الصدد:

(فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلها حق، هذا إذا لم يخالف بعضها بعضاً، والقرآن حق لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه.. المصدر نفسه ٣٣٧.

والكلام هنا بشرطه، وهو عدم مخالفة بعضهم لبعض؛ لأن إجماع الأمة هو علامة فارقة في مصداقية المتبوع وعقلية التابع الناضجة؛ إذ أن القرآن حق قد اتفقت عليه الفرق جميعها بوصفه منهجاً كاملاً لحياة البشرية في كل مكان وزمان، ومصاديقه تكمن في (التوحيد بين المنهجية المعرفية للعلم والإيمان (و) فيه رد اعتبار لمقولة تكامل الغيب والشهادة) إسلامية المعرفة عند السيد محمد باقر الصدر ١٢٩. ثم ينتقل الإمام (ع) في بيان الصورة إذ يذكر حديث الثقلين الذي يجعل القرآن الكريم وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) في كفتين متعادلتين، ليس احتجاجاً على منكري حق الأئمة المعصومين فيما يتعلق بالخلافة والحكم، بل على أساس اتفاق كل رواة الحديث على صدقية الحديث ومصاديقه وحجته العلمية الروائية لدى أهل العلم فضلاً عن العامة؛ إذ أن الإمام (ع) أراد من وراء هذا الطرح الفكري العقائدي تثبيت حقيقة مفادها أن فهم القرآن مخصوص بنوعية من البشر وليس لكل من اكتسب طرفاً من العلم، فذلك لا يؤهله لفهم المتشابه والحكم والناسخ والمنسوخ وغيره من آيات القرآن، وفي ذلك بيان جلي في أن الحاكمية الفكرية لأهل البيت (عليهم السلام)؛ لأنهم أكثر الناس فهماً للقرآن الكريم لتزوله في بيوتهم وكونهم تلاميذه، وعن ذلك يعبر الإمام (ع) بقوله :

الأشياء بناء على القاعدة العقديّة التي ذكرها عن جده الإمام الصادق (ع)، يقول في ذلك الإمام الهادي (ع) :
(...) ولما التمسنا تحقيق ما قاله الإمام الصادق (ع) من المتزلة بين المتزتين وإنكاره الجبر والتفويض، وجدنا الكتاب قد شهد وصدق مقالته في هذا وخبر عنه أيضا موافق لهذا...) المصدر نفسه والصفحة.

إن إطلاقية الكلام دون تمحيص تمثل فخاً ينصبه البحث لصاحبه، وعليه فإن الإمام الهادي (ع) لم يدع مجالاً للتقول المشكك في المنهجية النبوية المرتكزة على القرآن الكريم، فراه يعيد قول الإمام الصادق (ع) إلى مُنشئه الأول، فيعبر عن ذلك بالتمحيص الذي يبرز النتائج على دقتها، حتى يقول بأنه وجد ما قاله الإمام الصادق (ع) يقوم على أساس قرآني قوي، وقد نطق بذلك قبل الإمام الصادق (ع) مما يعطي فهماً قائماً على استنتاج سليم، هو أن هؤلاء الأشخاص قد تلمذوا على القرآن وغلوا من ينبوعه الثر وتشربوا معانيه فأصبح جزءاً من تكوينهم الروحي والعقلي، فكانوا يفهمونه بطريقة تختلف عن سواهم ممن وقف على ساحل النص القرآني فكان صيدهم منه الزعانف، وكان أئمة أهل البيت يذهبون إلى أعماق النص فيأتون بالجواهر والدرر الفكرية التي تنير الطريق لكل من يجيد عن الجادة السوية .

ثم يعزز الإمام الهادي (ع) رسالته في هذا الباب بقوله:
(...) إن الإمام الصادق (ع) سئل هل أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال الصادق (ع): هو أعدل من ذلك، فقيل له : هل فوض إليهم ؟ فقال (ع) هو أعز وأقهر لهم من ذلك) تحف العقول ٣٣٩.

بين العدل الإلهي بوصفه مفهوماً عقائدياً وبين العزة والقهر الإلهي للعباد بوصفه مفهوماً ينم عن حاكمية مطلقة وقف الإمام الصادق (ع) مشيراً إلى تلك المتزلة الوسطى

(...) ثم وردت حقائق الأخبار من رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الصادقين (عليهم السلام) ونقلها قوم ثقات معروفون فصار الاقتداء بهذه الأخبار فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة لا يتعداه إلا أهل العناد، وذلك أن أقاويل آل رسول الله (صلى الله عليه وآله) متصلة بقول الله (...). تحف العقول ٣٣٨.

تحدد المنهجية لدى أهل البيت في هذا الاتجاه الذي يؤهلهم في أن يتبوؤوا هذه المتزلة العلمية العالية التي تجعلهم حكماً وحاكمين على الناس باعتبار هذا الأمر فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة لا يتخطاه إلا أهل العناد — حسب تعبير الإمام (ع) —، وكما يشير إلى حجية المتزلة يشير إلى الدليل وهو اتصال كلامهم بكلام الباري جل وعز، كل ذلك وسواه يمثل طريقاً اتخذ الإمام علي الهادي (ع) لبلوغ المطلوب في بيان عدم حجية آراء أهل الجبر والتفويض؛ إذ ينتقل إلى تفصيل ذلك ما أسمىناه (نظرية الاستطاعة) عنده، وهو يبين هذا الذي قلناه واضحاً بقوله:
(...) وإنما قدمنا هذا الشرح والبيان دليلاً على ما أردناه وقوة لما نحن مبينوه من أمر الجبر والتفويض والمتزلة بين المتزتين وبالله العون والقوة وعليه نتوكل في جميع أمورنا...) تحف العقول ٣٣٩.

ثم يدخل مباشرة إلى قاعدة النظرية التي انطلق منها، وهو قول الإمام الصادق (ع) ؛ إذ يقول :

(...) فإننا نبدأ من قول الإمام الصادق (ع) : "لا جبر ولا تفويض ولكن متزلة بين المتزتين، وهي صحة الخلقة وتخليّة السرب والمهلة في الوقت والزاد مثل الراحلة والسبب المهيّج للفعل على فعله...) المصدر نفسه والصفحة .

وهكذا يبدأ الإمام جوابه عن مسألة أصحابه الذين سألوه الرد على القائلين بالجبر والتفويض ؛ إذ بدأ يفصل

بين المنزلتين، ثم جاء الإمام الهادي (ع) ليعطيها مفهومها النظري المستمد من الفكر القرآني بلفظتها القرآنية التي ينضوي تحتها المعنى برفق، فيقول في مفهوم الجبر قائلاً :

(فأما الجبر الذي يلزم من دان به الخطأ فهو قول من زعم أن الله عز وجل أحبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها، ومن قال بهذا القول فقد ظلم الله في حكمه، وكذبه وردّ عليه قوله (ولا يظلم ربك أحدا) سورة الكهف الآية (٤٩). وقوله (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) سورة الحج الآية ١٠. وقوله (إن الله لا يظلم شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) سورة يونس الآية (٤٥) تحف العقول ٣٤٠ .

إن الوعي بماهية الجبر وطبيعته من حيث الظلم الذي يقع على الفرد أو الخالق عز وجل، يحتاج قراءة دقيقة لمقتضيات الآيات القرآنية وبيان مقتنياتها الفكرية والمضمونية والسياق الذي تأتي فيه، وعلى هذا فإن الإمام علي الهادي (ع) جاء بأمثلة تطبيقية لبيان المعنى والدلالات التي يمكن إحرازها من معرفة ما يراد بالجبر ومتطلباته، فيقول الإمام الهادي (ع) :

(...فمن زعم أنه مجبر على المعاصي فقد أحال بذنبه على الله وقد ظلمه في عقوبته... ومثل ذلك مثل رجل ملك عبداً مملوكاً لا يملك نفسه ولا يملك عرضاً من عرض الدنيا ويعلم مولاه ذلك منه فأمره على علم منه بالمصير إلى السوق لحاجة يأتيه بها....) المصدر نفسه ٣٤٠.

وعلى هذا الأساس يبين الإمام طبيعة الجبر ومتطلباته وأقيسته — إن صح التعبير — وفي هذا الباب يقول الإمام الرضا (ع) لأحد أصحابه حينما سأله عن تفويض الله عز وجل الأمر للعباد، فقال له الرضا (ع) (الله أعز من ذلك، ثم قال الرضا (ع): قال الله عز وجل: يا بن آدم، أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، عملت المعاصي

بقوتك التي جعلتها فيك التوحيد ٣٦٢ - ٣٦. وهو ذات المعنى الذي يذكره الإمام الهادي (ع)، حينما يقول عن ذلك :

(... بل نقول : إن الله حل وعز يجازي العباد على أفعالهم بالاستطاعة التي ملكهم إياها، فأمرهم ونهاهم وبذلك نطق كتابه (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) سورة الأنعام الآية (١٦١) . وقال حل ذكره (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) سورة آل عمران الآية (٣٠). وقال (اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) سورة غافر الآية (١٧) . فهذه آيات محكمات تنفي الجبر ومن دان به، ومثلها في القرآن كثير...) تحف العقول ٣٤١.

من هنا يتبين لنا أن منهج أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هو الاعتماد على فهم النص القرآني بوصفه أساساً لكل الأفكار العميقة التي تحتاج إلى استدلال عميق، فقد نص الإمام الهادي (ع) على الاستطاعة بالاسم، كونها هي الأساس في ثواب العبد وحسابه عن كل فعل قام به، وفي الاتجاه ذاته من حيث مفهوم التفويض الذي هو رأي بعض المسلمين من غير أئمة أهل البيت، يقول الإمام علي الهادي (ع) عن مفهوم التفويض معتمداً على أصل النظرية التي طرحها الإمام الصادق (ع)، فيقول:

(وأما التفويض الذي أبطله الإمام الصادق (ع)، وأخطأ من دان به وتقلده، فهو قول القائل: إن الله حل ذكره فوّض إلى العباد اختياراً أمره ونهيه وأهمّهم، وفي هذا كلام دقيق لمن يذهب إلى تحريره ودقيقته، وإلى هذا ذهب الأئمة المهتدية من عترة الرسول (صلى الله عليه وآله) فإنهم قالوا : لو فوّض إليهم على جهة الإهمال لكان لازماً له

فاتبعت هواي وإرادتي ؛ لأن المفوض إليه غير محظور عليه
فاستحال التفويض) المصدر نفسه ٣٤٢.

ثم ينتقل لبيان الوجه الآخر لهذه المسألة، فيقول :

(...) وفي إثبات العجز نفي القدرة والتأله وإبطال الأمر
والنهي والثواب والعقاب ومخالفة الكتاب إذ يقول: (وَلَا
يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) سورة الزمر
الآية (٧). وقوله عز وجل (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) سورة آل عمران الآية (١٠٢). وقوله: (وَمَا
خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا) سورة الذاريات الآيتان (٥٦ و٥٧)،
وقوله: (اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) سورة النساء الآية
(٣٦) . وقوله (أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا
تَسْمَعُونَ) سورة الأنفال الآية (٢٠).

من هنا يتبين أن العجز يعني نفي القدرة عن الباري عز
وجل وهذا ما لا يمكن وجوده أو انطباقه على الخالق
العظيم جل وعلا، بل حتى مفهوم الألوهية ينتفي في هذه
الحال، ويصبح مفهوم الثواب والعقاب باطلاً من جهة
البارئ تعالى، هذا من جهة العجز، ومن جهة التفويض
يقول الإمام (ع):

(...) فمن زعم أن الله تعالى فوض أمره ونهيهِ إلى عباده
فقد أثبت عليه العجز وأوجب عليه قبول كل ما عملوا من
خير أو شر وأبطل أمر الله ونهيهِ ووعدهِ ووعدهِ، لعله ما
زعم أن الله فوضها إليه لأن المفوض إليه بعمل بمشيئته، فإن
شاء الكفر أو الإيمان كان غير مردود عليه ولا محظور، فمن
دان بالتفويض على هذا المعنى فقد أبطل جميع ما ذكرنا من
وعده ووعدهِ وأمره ونهيهِ وهو من أهل هذه الآية
(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ
يَعْمَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) سورة

رضى ما احتاروه واستوجبوا منه الثواب ولم يكن عليهم
فيما جنوه العقاب إذا كان الإهمال واقعاً) تحف العقول
٣٤١ .

وهنا من خلال تعريفه للتفويض كونه تفويض العباد
أمره ونهيهِ وإهماله لهم من جهة أخرى، إنما يعني قراءة دقيقة
جداً وعميقة غاية في العمق لا يمكن أن يستنبطها من وقف
على ساحل النص القرآني — كما أسلفنا — بل يستنبطها
من غاص في أعماق النص القرآني وجاء بالمعنى المراد من
خلال الفهم الحقيقي المناسب للنص، ويضيف الإمام (ع)
موضحاً الفكرة بجلاء أكثر:

(...) وتنصرف هذه المقالة على معنيين : إما أن يكون
العباد تظاهروا عليه (الله) فألزموه قبول اختيارهم بآرائهم
ضرورة — كره ذلك أم أحب — فقد لزمه الوهن، أو
يكون جل وعز عجز عن تعبدتهم بالأمر والنهي على إرادته
— كرهوا أو أحبوا — ففوض أمره ونهيهِ إليهم وأجراهما
على محبتهم إذ عجز عن تعبدتهم، بإرادته فجعل الاختيار
إليهم في الكفر والإيمان...) المصدر نفسه ٣٤٢ .

وهذا مما لا يمكن حصوله ؛ لأن عجز الله تبارك وتعالى
يعني أنه ضعيف وغير قادر على العباد من جهة، وأنه عاجز
من جهة أخرى، وكلا الأمرين لا يمكن حصوله باعتبار أن
الله قادر وقوي وغير عاجز عقلاً ويجب الاعتقاد بذلك ؛
لأن لها بمواصفات العجز والضعف لا يصح أن يكون لها
أبداً، ثم جاء الإمام الهادي (ع) بتطبيق في قوله :

(...) ومثل ذلك مثل رجل ملك عبداً ابتاعه لخدمته
ويعرف له فضل ولايته ويقف عند أمره ونهيهِ... وبعثه في
بعض حوائجه وسمى له الحاجة فخالف على مولاه وقصد
لإرادة نفسه واتبع هواه... فقال له: لم أتيتني بخلاف ما
أمرتك؟ فقال العبد: اتكلت على تفويضك الأمر إليّ

البقرة الآية (٨٥). تعالى عما يدين به أهل التفويض علواً كبيراً) تحف العقول ٣٤٣.

وعلى هذا الأساس، فند الإمام الهادي (ع) رؤية القائلين بالجبر والتفويض بنصوص القرآن الكريم، على أساس الفهم العميق للآيات القرآنية، وبشكل ينظر إلى المشتركات بين الآيات وفق فهم ينتمي إلى التحليل المضموني لهذه الآيات، وبذلك ينتهي الإمام (ع) إلى القول حاسماً كل التصورات الخاطئة لصالح الفهم الحقيقي لمسألة الجبر والتفويض، وأن لا جبر ولا تفويض هناك، بل أمر بين أمرين أو مثلة بين مثلتين وفي هذا الأمر يقول الإمام الهادي (ع) ليقطع الطريق على المجبرة والمفوضة :

(لكن نقول: إن الله حل وعز خلق الخلق بقدرته وملكتهم استطاعة تعبدتهم بها، فأمرهم ونهاهم بما أراد فقبل منهم اتباع أمره ورضي بذلك لهم، ونهاهم عن معصيته وذم من عصاه وعاقبه عليها والله الخيرة في الأمر والنهي، يختار ما يريد ويأمر به وينهى عما يكره ويعاقب عليه بالاستطاعة التي ملكتها عباده لاتباع أمره واجتناب معاصيه؛ لأنه ظاهر العدل والنصفة والحكمة البالغة، بالغ الحجة بالإعذار والإنذار وإليه الصفوة يصطفى من عباده من يشاء ليلبغ رسالته واحتجاجه على عباده) تحف العقول ٣٤٣.

وبهذا يحسم الإمام (ع) بشكل تفصيلي بناء على النظرية التي صرح بها جده الإمام جعفر الصادق (ع)، الأمر الذي اضطربت فيه الأفكار لدى الفلاسفة والمتفلسفين والمتكلمين من المسلمين وغيرهم، بناء على فهم حقيقي لمحمل آيات القرآن الكريم ووفق رؤية تفصيلية تحفر في أعماق النص وتنسج أفكارها بناء على هذا الحفر الذي يتخذ من المعرفة سلاحاً له، وليس الفهم المرتبط بالشكل والوقوف عند الظواهر أو التمسك بالرأي الشخصي دون تمحيص أو فهم عميق لمجريات الوجود.

نتائج البحث

كشف البحث عن نظرية مهمة بنيت على النظرية الكلامية التي طالما رويت عن أئمة أهل البيت (ع) وهي نظرية الجبر والتفويض، ألا وهي نظرية الاستطاعة التي تمثل عند الإمام علي الهادي (ع) اللب الذي قامت عليه نظرية الأئمة في الجبر والتفويض، أي أمر بين أمرين أو مثلة بين مثلتين، وكشف البحث عن تلك التطبيقات التي ذكرها الإمام الهادي (ع) في نظرية الاستطاعة، التي من وجهة نظر البحث الدقيق هي عنصر الاحتجاج الحقيقي الذي دافع به الإمام الهادي (ع) عن وجهة نظره التحليلية التي بين من خلالها أن الاستطاعة التي ملكتها الله تبارك وتعالى عباده هي الأساس في عملية الثواب والعقاب، وانتهى إلى أن ذلك يمثل قراءة صادقة وعميقة للمفهوم القرآني بآياته الكريمة الواردة في هذا الباب.

كما كشف البحث عن أن النص القرآني تحدث عن مفهوم الاستطاعة من حيث العلاقة الرابطة بين هذا المفهوم وبين مفاهيم الطاعة والقدرة ذات العلاقة وقد تناول الإمام الهادي (ع) بعض الآيات القرآنية بطريقة حجاجية لبيان مقدار تعاطيه مع المفهوم القرآني المستند إلى معرفة عميقة بالمعنى الذي يريده القرآن الكريم، بما يساعد على ترسيخ القناعة بإمكانيات أهل البيت (عليهم السلام) العلمية التي تكشف عن فهم علمي راسخ بمجريات الكون وتجلياته.

الهوامش

١. يراجع في ذلك: بحوث في الملل والنحل، دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية بأجزائه الكاملة.
٢. تحف العقول ٣٣٧، وفي ذلك نظر؛ إذ أن الحديث في حال صحة نسبته، فإنه يحتاج إلى أن نحمله على أنه يعني : أولاً، أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) عني بـ(أمّتي)

- صحبته الذين يمثلون أوامره وليس الذين يتمرّدون على أمره فهؤلاء ليسوا من أمته، ولو كان هؤلاء الصحابة شخصاً واحداً أو كانوا جيوشاً من البشر، ولعل تخلي المسلمين عن وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في غدِير خم بالبيعة لأُمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) هناك خير دليل على تفرّق الأمة، إذن الأمة افتُرقت على الحق، ثانياً، إن نسبة الأمة (أُمّي) إلى النبي الأكرم هي نسبة تشريف قطعاً، والذين عصوا أمر النبي (ص) قد خرجوا من معنى اللفظ فهو ينطبق على الذين آمنوا بولاية أمير المؤمنين (ع)، بالإضافة إلى أن لا بد للحديث من سبب قيل فيه، فإذا لم يكن هناك سبب فهذا يعني انتفاءه جملة وتفصيلاً؛ لأننا لا يمكننا قبوله هكذا على علته، فالأمة منذ لحظة انتقال الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى لحد الآن متفرقة، مما يدعوننا إلى القول بأن الحديث النبوي الشريف يمكن حمله على الصحة إذا تمت قراءته قراءة تأملية، كحديثه (صلى الله عليه وآله) (اختلاف أُمّي رحمة) فالاختلاف في اللغة التزاور والتواصل وعكسه التخالف بمعنى التقاطع والتدابير، وهذا الأمر يحتاج إلى التنبيه إليه من قبل أهل العلم، وعدم الاعتماد على آراء المتطفلين الذين يقلّبون الأحاديث بما يتوافق وأهوائهم.
- [٢] العمري، حسن، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) إسلامية المعرفة عند محمد باقر الصدر، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت - لبنان
- [٣] السبحاني، الشيخ جعفر، (د.ط.) البحوث في الملل والنحل، دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية، طهران - إيران
- [٤] المجلسي، محمد باقر، (١٣٨٧هـ) بحار الأنوار، المكتبة الإسلامية، طهران - إيران.
- [٥] الحرائي، الشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة، (د.ت.) تحف العقول عن آل الرسول، قدم له وعلق عليه الشيخ حسين الأعلمي، د.ط.
- [٦] الحرجاني، الشريف، (د.ت.) التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
- [٧] ابن بابويه، الشيخ الصدوق (د.ت.) التوحيد، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- [٨] أبو هلال العسكري، (د.ت.) الفروق اللغوية الفروق اللغوية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- [٩] العمري، عبدالحسين، (٢٠١٣م) محنة المثقف - دراسة نصوص عبدالله بن المقفع أسلوبياً، د. دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، دمشق - سوريا.
- [١٠] الأعرجي، ستار جبر، (٢٠٠٨م)، مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني، د. سلسلة كتب ثقافية يصدرها بيت الحكمة، ط١، بغداد - العراق.

المصادر و المراجع

- [١] الزمخشري، جار الله، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) أساس البلاغة، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ.

نظریه استطاعت و کاربردهای آن در گفتار امام هادی (ع)

أ.م.د. عبدالحسین العمری^۱

تاریخ پذیرش: ۹۲/۵/۶

تاریخ دریافت: ۹۲/۴/۱۵

پژوهش حاضر موضوع نظریه استطاعت و کاربردهای آن را در گفتار امام هادی (ع) در بر می‌گیرد که از دیدگاه ما پایه و اساس نظریه جبر و اختیار ائمه اسلام علیهم السلام است. در این پژوهش سعی داریم -با تکیه بر معلومات محدود خود- ایده‌های امام (ع) را در این نظریه که تا به حال کسی به آن نپرداخته است شفاف سازی کنیم. از این رو مفهوم استطاعت را در لغت و اصطلاح بیان کرده و مبانی قرآنی آن را به ایجاز و تا جایی که فضای این تحقیق اجازه داده است، بررسی می‌نمائیم. باشد که فرصتی برای پژوهش در این نظریه و کشف مبانی آن در قرآن و حدیث و احادیث ماثور ائمه اهل بیت علیهم السلام در این باب، فراهم آید.

واژگان کلیدی: نظریه، استطاعت، جبر، اختیار، کاربردها. امام هادی(ع).

^۱. دانشگاه ذي قار عراق، دانشکده ادبیات. dr.alumary2012@yahoo.com